خطبة صلاة الجمعة 13/9/2013 للشيخ الطبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا ﴾

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدِه الله فهو المهتَد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، هدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كره الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللهم صلِّ على سيّدنا محمَّد وعلى أله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد:

عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير:

يقول الله تعالى: ﴿ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ * وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ [هود:121-122].

وقال جلَّ شأنه: ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام:135].

أخرج ابن الأثير الجزري في جامع الأصول، في أدعية الكَرب والهمّ، ما رواه أبو داود بسنده، عن أبي سعيدٍ الخدري رضي الله عنه، قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ».

عنوان خطبة اليوم:

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾

الإيمان عملٌ، والحركة تولِّد الفقه، والعضو الذي لا يعمل يمرض، والعمل يولِّد الأمل.

هذه الأربعة مادة خطبة اليوم.

أيها الإخوة:

يكثر في الأزمات الفراغ والكسل، والبطالة والجدل، فيزداد لذلك الهمُّ والحزن، وينتشر الفقر والعَوز.

فالموظف الذي يعود من عمله باكراً أو لا يذهب للعمل بالكلِّية، ثمَّ يُمضي بقية نهاره أمام شاشة الأخبار ووراء كلِّ متقولٍ.

والطَّالب الذي يُهمل دراسته أو يتركها، بسببٍ ومن دون سببٍ.

والسَّيدة التي تقضي ساعات النَّهار في قيلٍ وقال، وكثرة سؤالٍ.

كلُّ هؤلاء يزيدون الأزمة أزمةً والشِّدَّة شدَّةً.

وأنتم تقرؤون في سورة الشَّرح أمراً عجباً، وفيها قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:5-6].

أوَّل ما نقرأ في سبب نزولها ما أورده الإمام السُّيوطي قال: (نزلت لَمَّا عيَّر المشركون المسلمين بالفقر)، وهي سورةٌ مكيَّةٌ، إذ كان المسلمون في فقرٍ وقِلَّةٍ وشِدَّةٍ وأزمةٍ، وسمِّيت السُّورة بسورة الشَّرح، ولم تُسَمَّ سورة الضِّيق والأزمة.

وثاني ما نقرأ أنَّ آيات العُسر اقترنت بكلمات اليسر، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، وهما يُسران وعُسرٌ واحدٌ، ولن يغلب عسرٌ يسرين.

وثالث ما نقرأ أنَّ آيات العسر داعيةٌ إلى العمل والنَّصب لا القعود والعطب، ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: 7-8].

ويظهر أنَّ الأزمات والشَّدائدَ والعسرَ تقترن عند كثيرٍ من النَّاس بأوقات فراغٍ طويلةٍ، لذلك أعقب آياتِ العسر الحديثُ عن الدَّعوة إلى العمل الجادِّ في وقت الفراغ.

أيها الإخوة:

الإيمان عمل، فمن تعريفات الإيمان أنَّه: ما وَقرَ في القلب وصدَّقه العمل، ومن تعريفاته أنَّه: اعتقاد بالقلب ونُطقٌ باللِّسان وعمل بالأركان، وعرّفه البخاري في صحيحه أنَّه: قولٌ وفِعلٌ.

وقال كثيرٌ من العلماء: إنَّ الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالعمل الصَّالح، ويَنْقُص بضدِّه، ودَلَّلَ البخاري على هذا المذهب بأدلَّةٍ كثيرةٍ.

وأنتم تقرؤون في القرآن الكريم أكثر من خمسين مرَّةٍ عبارة: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا﴾، في دلالةٍ واضحةٍ إلى اقتران الإيمان بالعمل.

فمطلوبٌ من المسلم العمل الصَّالح في العسر واليسر، وفي الشِّدَّة والدَّعة، وفي الأزمة والرَّاحة ما استطاع لذلك سبيلاً، يقوّي به إيمانه وينشر به الخير في الأرض، هذا عن الإيمان والعمل.

أمَّا عن قولهم الحركة تولد الفقه، فإنَّ عمل المسلمين وحركتهم، ونشاطهم وفاعليتهم، تولِّد مسائلَ جديدة يحتاجون إلى أحكامها الشَّرعيَّة، فيرجعون بذلك إلى علمائهم الذين يبحثون بدورهم عن نظائرَ لهذه المسائل وأشباه، فيقيسون ما لا دليل عليه بما عليه الدَّليل، ويَحْمِلون النَّظير على النَّظير فيخرجون للعالَم بأحكام أصيلةٍ لحوادث جديدةٍ، فيتجدد الفقه بالحركة.

ما حكم زراعة الأعضاء، وما حكم العمل بالبورصة، وما حكم الإجارة المنتهية بالتَّمليك، وما أثر تبدُّل قيمة النَّقد على الدُّيون، ما حكم طفل الأنبوب، وما حكم التَّبرع بالأعضاء، وما القول في حقوق التَّأليف وبراءات الاختراع والعلامات التِّجارية... كلُّها مسائل جديدة، ولّدتها الحركة والعمل، بحثها الفقهاء وأصَّلوها، بل إنَّهم سموا فقهاً كاملاً (فقه النَّوازل)، يريدون به ما نزل بالنَّاس من مسائل جديدة لم تكن في الماضي.

والفقهاء بهذا مأجورون، والنَّاس العاملون بقولهم مبرورون، والمجتمع الذي يتحرَّك يُنتج، والذي لا يعمل يموت.

إنَّ الحركة تولِّد الفقه، ولذلك كان العمل نافعاً في العسر واليسر، وفي الشِّدة والرَّخاء.

أمَّا عن الصِّحة والعمل: فمعروفٌ لديكم أنَّ الأطباء متفقون على أنَّ العضو الذي لا يعمل يَضْمُر ورُبَّما يموت، فاليد التي لا تتحرَّك تضمر عضلاتها، وتيبس عروقها، وتتكلَّس مفاصلها، بينما العاملة بريئةٌ من هذه العيوب.

والأضراس التي لا يستخدمها صاحبها في طحن الطَّعام وتقطيعه تتنخر، وتزداد التَّرسبات الكلسيَّة حولها فتلتهب الأنسجة الدَّاعمة لها، بينما تسلم الأضراس العاملة من ذلك.

وإذا ما توقف عضوٌ عن العمل بسبب أذيَّةٍ عصبيَّةٍ، ثمَّ زالت الأذيَّة فإنَّ قُصارى ما يفعله المعالجون الفيزيائيون أنَّهم يتابعون تحريك الأعضاء حتَّى لا تمرض أو تموت، إلى أن يصير المريض قادراً على تحريكها.

فالعمل صحةٌ، والعجز والكسل مرضٌ وعلَّةٌ، والحركة بركةٌ.

ولئن كان هذا المعنى صحيحاً في الطِّب السَّريري؛ فإنَّه أكثر صحةً في الطِّب النَّفسي، وإنَّ أخطر حالات الذِّهن يومَ يَفرغ صاحبه من العمل.

فعلَّة العلل في الأمراض النَّفسية، أن يجلس المريض وحيداً بعيداً عن النَّاس، أسير هواجسه ووساوسه، وأقوى العلاجات تكون في إدماجه بالنَّاس، ومخالطته لهم، وحركته وعمله النَّافع معهم، ولذلك ربط الدُّعاء النَّبويُّ الشَّريف بين العجز والكسل، وبين الهمِّ والحَزَن: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ**».

أيها الإخوة:

هذا حديثي عن الإيمان والعمل وعن الفقه والعمل وعن الصحة والعمل، وأختم بالحديث الذي هو بيت القصيد من خطبة ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾ : **الأمل والعمل**.

فالعمل يُثبت الأمل، والكسل يُورث الضَّجر، في الأوقات عامَّةً، وفي الأزمات خاصَّةً.

اليأس هزيمةٌ وموتٌ، والأمل انتصارٌ وحياةٌ، ونفوس الحكماء لا تقبل الهزائم، صحيحٌ أنَّ الهزائم قد تقع في أموالهم وأجسادهم وأتباعهم، لكنها أبداً لا تقع في إراداتهم وأنفسهم، ألم تروا إلى سيدنا يعقوب عليه السَّلام بعد أن فَقَدَ ولده يوسف خمساً وثلاثين سنةً ويزيد يقول: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:87].

الأمل تفاؤلٌ مع عملٍ، وهو محمودٌ، وكلُّ حكيمٍ ذو أملٍ، أمَّا الأمنية فهي تفاؤلٌ بلا عملٍ، وهي مذمومةٌ، وكلُّ أحمقٍ متمنٍّ.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء:123-124].

قبل يومين ختم أربعة طلابٍ -أكبرهم في السَّادسة عشرة من عمره- حِفظ القرآن الكريم، وحَفظ مائة وعشرون من أصحابهم أجزاء متفرّقةً، وقبلهم بيومٍ تخرَّج في المسجد -هنا- حافظٌ جديدٌ للقرآن الكريم -في السَّابعة عشر من عمره- مع عشراتٍ من أصحابه حفظوا أجزاءً متفرّقةً، مع أكثر من خمسة طلابٍ نجحوا بتفوقٍ كبيرٍ في الثَّانوية العامَّة والشَّهادة الإعداديَّة المتوسطة، وقبلهم بثلاثة أيَّامٍ أنهت العشرات من بناتكم حِفظ أجزاء من القرآن في هذا الصَّيف، وقبل أسبوعين أرسلت لنا جمعية البركة تقرير ما قمتم به في شهر رمضان من إعالة الأُسر المتضرِّرة، فبلغ مجموع ما وصل إلى المتضرِّرين من مساعداتٍ ماديَّةٍ وعينيَّةٍ في رمضان وحده، ما يزيد على خمسين مليوناً، والحمد لله؛ أضف إلى ذلك دَرَسَ أكثرُ من أربعِمائة منكم مادة فقه المعاملات الماليَّة، وتحصَّل على شهادة المشاركة قريب المائتين.

إنَّك عندما تعمل تزيد فُرص الفرج وسرعتَه، وتبعث في نفسك ونفس من حولك الأمل، لكن القاعدين العاجزين يقنطون ويُقنِّطون.

والعجب ممَّن لا يعمل، ثمَّ يُريد من غيره ألا يعمل، لأنَّ البلد في أزمةٍ وفي العباد شدَّة، وكأنَّ سورة الشَّرح وفيها ما مرَّ بكم لم تُقرأ عليه.

إنَّ خطبة: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا﴾ جاءت لتقول:

إذا كان الإيمان عملاً، والفقه عملٌ، والصِّحة عملٌ، والأمل عملٌ؛ فقم ولا تتثاقل، وبادر ولا تتبارد، واعمل ولا تتكاسل.

جاءت لتقول: إذا كان الإيمان يزيد بالعمل، والفقه ينمو بالعمل، والصِّحة تشرق بالعمل، والأمل يكبُر بالعمل، فاعمل لدنياك كأنَّك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنَّك تموت غداً.

جاءت لتقول: نفسك إن لم تشغلها بالخير شغلتك بالشَّرِّ، والشَّيطان يجد عملاً للأيدي العاطلة لكي تعمل.

جاءت لتقول قول الإمام الحسن البصري: (ما من يوم ينشق فجره إلَّا نادى منادٍ من قبل الحقِّ: يا ابن آدم أنا خلقٌ جديدٌ، وعلى عملك شهيدٌ، فتزود منِّي بعمل صالح، فإنِّي لا أعود إلى يوم القيامة).

جاءت الخطبة لتروي ما جاء في صحيحي البخاري ومسلم من قول رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «**عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ**»، قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: «**يَعْتَمِلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ**»، قَالَ: قِيلَ أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ: «**يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ**»، قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ: «**يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَوِ الْخَيْرِ**»، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: «**يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ**».

جاءت لتقرأ قول الله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:105].

والحمد لله رب العالمين